عطا وليلى*

للأديب الباكستاني محمد سعيد شيخ

ترجمة: د. سمير عبدالحميد - اليابان

كان عطا محمد من أعماق قلبه لا يريد أن يبقى على قيد الحياة، كم ظل يتقلب قلقا وهو يعيش كل يوم مذبذبا بين الحياة والموت ، فحين يحل الليل، ويخيم الظلام، ويخلد إلى النوم، كان يظن أنه قد فارق الحياة، فتردد الأنفاس بداخله لا يعني بالنسبة له أنه على قيد الحياة.

لقد مات أصلا حين ماتت ليلى، وهذا أمر آخر أنه هو الذي قام بدفنها بنفسه، كانت ليلى هي علامة الحياة عنده، فبدونها كان كل شيء موجودا، لكن وجود الأشياء كان خاليا من الحياة.

لا يشعر عطا محمد اليوم أيضا برغبة في الاستيقاظ، ظل راقدا أو منبطحا على الأرض مثل إنسان أصابه شلل، تدق رأسه مطارق الصداع، أو مثل ضحية ملقاة تنتظر الذبح! وكان وهو في مثل وضعه هذا لا يرغب في أن يفعل شيئا ما، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك ما يدفعه للإسراع بالذهاب إلى أي مكان.. فقد كان يتخيل نفسه وهو يدخل صالة المقهى فيرمقه صاحب المقهى بنظراته الشرسة..

كان مضطرا إلى الخروج من هذا المكان، فقد يستطيع أن يتحرر من قيد هذه الجدران، لكن خارج هذه الجدران هناك عبودية أيضا.. في النهاية ارتدى الزي الأزرق اللامع، ووضع على رأسه الغطاء الذهبي ثم انطلق من هذا المدخل ناحية المطبخ، ومن المطبخ إلى الصالة، كان الوقت مبكرا في الصباح ومع هذا فقد وصل بعض الزبائن وجلسوا على الطاولات.

كان صاحب المقهى يقف عند صندوق المحاسبة، رمق عطا محمد بنظرة كلها غضب، وأخذ يتمتم:

---

* من المجموعة القصصية (كفارة) للأديب محمد سعيد شيخ ، نشرت في أردو دايجست، مجلد ٣٧ ، عدد ١٠، اكتوبر ١٩٩٧م، مصر . والأديب محمد سعيد شيخ من أدباء الأردية المعاصرين، يكتب القصة القصيرة، وله أكثر من مجموعة قصصية من أهمها (كفارة) التي اخترنا منها هذه القصة، وهو يميل إلى تصوير المجتمع الباكستاني وما فيه من قضايا، وقدرته على التحليل ورسم صور شخصياته تضفي الواقعية على قصصه وتزيد من تأثيرها على القراء .

ألا تستيقظ مبكرا يا باشا؟

بماذا يرد عليه عطا محمد؟!.. مضى دون أن ينبس بحرف.. ثم وقف في انتظار البدء في أداء مهمته، استعد لفتح الباب ممسكا مقبض الباب بيده اليمنى بينما اليد اليسرى ترتفع إلى مستوى جبهته وهو يردد:

مرحبا يا سيدي.. أهلا وسهلا يا حضرة.. وعليكم السلام يا سعادة الباشا!!

كان يغير ويبدل كلمات التحية بما يتناسب مع كل زبون يدخل المقهى، كان يفتح الباب بيد، بينما اليد الأخرى تتحرك تلقائيا تلقي بالسلام، وتعلو حتى تصل إلى مستوى جبهته، لكنه لم يكن يلتفت إلى أحد، فهو يفتح الباب لأي قادم كان.. حتى لو كان إنسانا آليا!

مع السلامة يا سيدي! شرفنا مرة ثانية يا سعادة البيه.

كانت الألفاظ تتردد بعفوية ويأتي الرد، لكن أحدا لم يكن يهتم من أين يأتي الصوت، ومن ذا الذي ينطق بهذه العبارات؟ وكيف؟

في هذه المدينة كان هذا المقهى منطقة جذب شديد للمثقفين وغيرهم ممن لا يحملون للدنيا همّا، ولا يعرفون مطلقا معنى الغم، ممن يأتون إلى هنا لفترات طوال، يثيرون صوت الطوفان بين أكواب الشاي، فيجلسون اليوم بطوله ينفثون الدخان من النارجيلة، وحين يمتلئ المقهى بمثل هؤلاء الناس، تتعالى فيه أصوات الأطباق والفناجين، ويعبق الجو بدوائر الدخان المتصاعد من مصادر مختلفة، بينما عطا محمد تائه حائر يتطلع هنا وهناك، يحرك ناظريه في الوجوه.. ويفكر: هؤلاء أناس مكتملون تماما، هكذا يبدون أيضا من بعيد، قاماتهم، قسماتهم، كل شيء فيهم مكتمل، بينما عطا محمد نفسه يبدو بين كل هؤلاء إنسانا قزما،

ومخلوقا حقيرا جدا...يبدو إنسانا غير مكتمل..

كان يعرف أن في هذه المدينة، في مكان ما، يوجد ولداه: الابن الأكبر بشير، والأصغر نذير، فيشعر بحنين إلى الخروج من حيث هو، لكنه إذا ما خرج إلى الشوارع، رأى المباني العالية الضخمة، فيدق قلبه بسرعة مضطربا، إذ كان يشعر بأنه أصغر كثيرا من حجمه الصغير فعلا، فيفكر:

من أنا هذا العطا محمد؟! ربما جئت إلى هذه الدنيا نتيجة خطأ ما.. خطأ لم يصدر عني!!

وداخل المقهى حين كان يريد شخص ما أن يخرج أو يريد شخص آخر أن يدخل، يجد عطا محمد فرصته ليستعد لتغيير درجة حرارته وهو قابع داخل هذا المكان الضيق بين بابين: باب يؤدي إلى داخل المقهى، وآخر يقود إلى خارج المقهى.. هنا في هذا المكان الضيق كان يعمل، حيث يمثل هذا المكان الذي يؤدي فيه عمله عالمه الخاص، وبجوه المتميز،فجوه ليس بالحار ولا بالبارد.. ففي فصل الصيف يدخل الناس للتمتع ببرودة التكييف في الداخل هربا من لفح الحرارة في الخارج وأشعة الشمس المحرقة، وفي الشتاء يهربون من البرد القارص والصقيع إلى الدفء المتوفر داخل المقهى، وفي الحالتين يمرون من هذا المكان الضيق الذي يقف فيه عطا محمد يؤدي واجبه مستقبلا القادمين ومودعا الذاهبين.

في هذا المكان الضيق يتوقف الناس لحظات استعدادا لمواجهة تغير الجو! في هذا المكان الضيق لا توجد برودة بالمعنى الصحيح، كما لا توجد حرارة بمعناها المتعارف عليه، فهنا حالة وسط بين الوجود واللاوجود، كأن هناك شيئا، كأنه لم يكن أيضا، وبالنسبة لعطا محمد كان هذا هو الإحساس الذي يلازمه، إنه يشعر بأنه لا يمكن أن يكون إنسانا كبقية الإنس، إنه مجرد ظل منكمش متقلص، له وجود من نوع

ما. لكنه أيضا ليس بموجود. وهو طوال يومه يفتح الباب الخارجي تارة، ويفتح الباب الداخلي تارة أخرى، بينما يده ترتفع بالتحية للخارج تارة، وللداخل تارة أخرى، ومع انفتاح الباب وانغلاقه تنفتح بداخله أيضا الأبواب وتنغلق بشدة، فيتردد صداها داخله..

حين جاء إلى المدينة لأول مرة سكن في منزل ابنه بشير أحمد خان لعدة أيام، هناك أيضا ظلت أصوات الأبواب تتبعه تتردد بداخله، في تلك الأيام ربما كان البيت يستقبل بعض الضيوف، فقاموا بإغلاق باب غرفة عطا محمد، الذي كان كلما وجد فرصة قام بفتح باب الغرفة على مصراعيه، كان يود أن يجدد هواء الغرفة وأن يشعر بالهواء المنعش، كان يفكر في الناس خارج الجدران، لكن (آمنة) زوج ابنه كانت كلما مرت ورأت باب الغرفة مفتوحا تغلقه وهي تصيح:

ياه.. أفتحت الباب مرة أخرى؟! لماذا تقلق الضيوف؟! سوف يشاهد الناس...!!

كانت تنطق الجملة الأخيرة بصوت منخفض..

كان الخادم يحمل إلى عطا محمد الطعام والعصائر والفاكهة بكميات كبيرة، بينما كان بشير و زوجته يضطربان إذا ما قدما ناحية غرفة عطا محمد، أو سمحا له بالخروج منها وكأن عطا محمد إنسان عجيب الخلقة، كان دخوله إلى بيتهم خطأ كبيرا..

شعر عطا محمد بالضيق، وأصيب بالاختناق في هذه الغرفة المغلقة، رغم أن البيت خلا من أي مخلوق غيره، وبدأ يشعر وهو حبيس هذه الغرفة أنه لو بقي مدة أطول هكذا، فسوف يستعمل يديه أيضا مثلما يستعمل رجليه، ويستعمل هذه الأربع في صعود الحائط، أو الوصول إلى السقف، وهذا الشعور طرأ عليه حين غافل الخدم ذات مساء وخرج من البيت..

وحين دخل الليل، وأغلق المقهى أبوابه، تمالك عطا محمد جسده الصغير جدا، وارتقى إلى صفيحة كبيرة ثم نزل ورقد بداخلها! ومر يوم وهو راقد هكذا.. مر عليه يوم لا يمكن أن يمر عليه مثله أبدا! وحين أدرك عطا محمد حقيقة وضعه، أصيب بالحيرة الشديدة، وصدم صدمة عنيفة.. ظل يفكر بعد أن أدرك قصر قامته: لقد خلقني الله هكذا، لكن أبي لم يصرخ، ولم يصح، ولم تشك أمي إلى الله ما تعانيه، لكنها كانت تدعو لي كثيرا وتتوسل بنبي الله الذي أرسله الله رحمة للعالمين، كما أن الله وهب عطا محمد قلبا كبيرا..

كانت أمه تحيطه دائما بالحب وتلفه بالحنان، وهو نفسه لم يكن يرى نفسه قزما صغيرا.. حينما ذكرت أمه موضوع زواجه، ضحك الناس وسخروا ثم صمتوا، فقال لأمه:

- خلاص يا أمي خلاص!!

وحين سكتت أمه ونسيت هذا الأمر. التقى بها فجأة، التقى بليلى، كان اسمها الحقيقي غير هذا، لكن الناس بدؤوا يطلقون عليها اسم ليلى من باب السخرية والتهكم، أو من باب الدعابة. كانت امرأة قصيرة القامة، أو غير مكتملة، ينتظرها رجلها، وليلى كانت في انتظار مجنونها، كانت على يقين من أنها ستجد نصفها الآخر..

نظر كل منهما إلى الآخر، كانا كأنهما خلقا ليكمل الواحد منهما الآخر، كان كل منهما ينزع دائما أشواك الآخر، كأنه يقطف الورد..

لا يزال عطا محمد يتذكر حين مرض ذات مرة! فالتصقت ليلى بمفرش السرير وكأن كل ما لها في الدنيا قابع هنا فوق هذا السرير، وكأنها لو تطلعت حولها إلى مكان آخر فسوف تضيع..

أغمضت ليلى عينيها وهي ممسكة بزجاجة الدواء، لا تدري شيئا مما حولها..

حين دخل عطا محمد دور النقاهة قال لها:

" أنا بخير! استريحي، سوف ترهقين نفسك، وسوف تتعبين وتمرضين.. "

فترد عليه:

- لا تقل هكذا!! أطال الله عمرك.. لا يمكن لأنفاسي أن تتردد بداخلي إن لم أشاهدك، إنك لا تدري يا عطا محمد.. إنك هبة من الله! فمن حسن حظي أن يكون تطبيبك وتكون رعايتك في أثناء مرضك من نصيبي.. فلا

تمنعني من هذا، لا تحاول أن تمنعني أبدا، فأنا أنال رضى الله بسبب رعايتي لك، وهكذا فرعايتك عبادة لله.

كان عطا محمد ينصت إليها ويشعر بالفخر، ويمسك بأناملها يمررها فوق عينيه المترغرغتين بالدموع..

جعل حب ليلى منه رجلا طويلا كبيرا.. أفسح عطا محمد لها مكانا بجواره على السرير قائلا بحب وحنان:

- اجلسي! تعالي هنا بجواري

- دعني.. اتركني .. فمكاني هنا عند قدميك.. يا سيدي! إنني أجد لذة كبيرة في هذا، أشعر بالسعادة، لم أكن أدري أنا نفسي شيئا عن مثل هذه السعادة.. يا عطيتي من الله! إنني أهب نفسي في سبيل شفائك، فأنا فداؤك.. لم أكن أعرف قبلا أنني لا شيء من دونك..

وتبقى ليلى تفترش الأرض.. ملتصقة بالسرير.. كانت من كل قلبها تود أن تفعل كل ما تستطيع من أجل عطا محمد حتى ينسى آلامه وأحزانه وينسى شعوره بالنقص، ذلك الشعور الذي يقلق مضجعه ليل نهار، فكانت تحاول أن تملأ قلبه بالمشاعر التي تجعله يرتفع ويعلو، ويشعر بأنه رجل كبير وطويل وليس قزما، وهكذا جنت من أجل عطا محمد، جنت بحبه بينما كان عطا محمد يراقبها، ويشاهد حالها تلك، وكان الناس كلما شاهدوا حركاتها يتندرون عليها ويسخرون منها، ويضحكون، لكنها لم تكن تعيرهم أدنى اهتمام، فدنياها ذابت في وجود إنسان آخر، لا وجود لسواه في ذهنها..

كان عطا محمد يشعر بأن هذا المرض حلم لا يود - من صميم قلبه - أن يستيقظ منه، فالبعد عن ليلى بالنسبة له يعني نهايته، فهو بدونها لا يساوي شيئا.. ونسي عطا محمد أنه ليس بإنسان عادي، فقامته في نظر ليلى أطول من قامة أي إنسان، وليس أمامه سوى ليلى.

لم يولد في أسرة عطا محمد أي طفل قصير القامة.. قزم.. فجميع أبناء الأسرة مثلهم مثل بقية الناس العاديين.. لكن عطا محمد ولد هكذا.. قزم.. كان طول قامته ثلاثة أقدام، لم تطل قامته أكثر من هذا، وحين تم زواجه من ليلى بدأت قامته تطول، جعلها حب ليلى تقفز وتثب إلى أعلى، ثم أيقظ هذا الحب وهذه الرعاية جسده من سباته العميق، جذبه حبها إلى مناطق أخرى في الحياة لم يكن يدري عنها شيئا حيث الرفعة والعلو، حيث تقل سلطة المشاعر والأحاسيس، وهذه الرفعة جعلته يشعر بأن الدنيا تبدو تحت قدميه، كأنه ينظر إليها من مقام عال.. وباختصار شعر بأنه ليس قزما، وليس معوقا وليس ناقصا بل هو إنسان كامل مكتمل، وأمكن لجسده الصغير أن يحلم أيضا، وأمكنه أن يرفع التراب الذي تراكم على جسده لسنوات.

ذات ليلة قالت له ليلى:

- إنها منذ عدة أيام تشاهد حلما يتكرر، حلما يظل مستمرا أمامها حتى بعد أن تستيقظ وتفتح عينيها.. كانت ترى أن نجوما تتساقط من القمر ومن السماء، وتنزل في حجرها، وحين تتطلع إلى حجرها المملوء بالنور تتحرك شفتاها وتبتسم عيناها ويتحول النور إلى هيئة وجه لا تكاد تتبين ملامحه..

كان عطا محمد سعيدا بحلم ليلى، وكان هو نفسه يفهم ما تقصده، فكانت عيناهما تلمعان سرورا ورضى.

وذات يوم دقت الأجراس بداخل ليلى، هناك من حلّ بها، وتحرك في أحشائها، فهناك من وضع بداخلها بذرة النمو، وجعل الوردة بداخلها

تتفتح، لقد وصلت إلى مرحلة اكتملت فيها ذاتها، فشعرت كأنها أصبحت طاقة كبرى، استمدت وجودها من وجود شخص آخر يشارك الكائنات نشاطها وكفاحها، لقد أوصلها عطا محمد إلى عروج المرأة الكاملة وسموها، جعل منها امرأة مكتملة بمعنى الكلمة..

كانت ليلى ترغب من صميم قلبها أن تُسمع جميع أهل البلدة هذا الخبر، كانت تريد أن تصرخ، وأن تصيح في الجميع قائلة: انظروا! أنا أيضا.. جعلني الله أهب الحياة لمخلوق يتحرك بداخلي، أنا امرأة مكتملة تنجب من داخلها ما شاء الله لها أن تنجب!

كم مرة تحسرت وشعرت بالأسى، ثم فكرت: ربما خلقها الله هكذا.. أراد لها ألا تنجب.. كانت مثل لعبة أو دمية تتحرك هنا وهناك، وتبدو للناس كأنها ربما تتحطم في مكان ما، في وقت ما، وتتناثر هنا وهناك، عندئذ لا يفيد المفتاح الذي يتسبب في حركتها.. لكن الاثنان الآن صارا في عداد الناس المكتملين لا ينقصهما شيء.. كانا ينظران إلى بعضهما نظرات تختلف عن نظرات البشر فيما بينهم، فقد كان الواحد منهما يغسل آلام الآخر فيظلان معا يبكيان سرورا وغبطة...

كان عطا محمد يعاود البكاء كلما خامره هذا الإحساس، وتذكر ما كان بينهما من مشاعر.. بينما يقف داخل هذه الغرفة الضيقة الملحقة بالمقهى حيث تتناثر من حوله على الأرفف (برطمانات) وعلب المواد التموينية، ويصك أذنيه أزيز الثلاجات، ويتراءى له بصيص من الضوء المنعكس على مرآة صغيرة مثبتة على الباب.. ووسط هذا الجو العاتم تنبعث روائح الأطعمة والأشربة المتداخلة.. كانت ثلاجة المقهى مملوءة عن آخرها، لم تكن هناك رغبة تذكر لدى عطا محمد في الطعام أو الشراب رغم وجود هذه المأكولات المطهية وغير المطهية.. فقد ماتت ليلى!

ماتت بين ذراعي عطا محمد..

ليلى التي عاش عطا محمد مستمدا قوته من وجودها، ولهذا فهو يدين لها بحياته، وربما كان كلاهما يدين للآخر بحياته، لقد وهبته ليلى فضل الإحساس بالأنثى.. تذكر أنه حين جاءتها العادة الشهرية للمرة الأولى، أصابها الاضطراب فأخذت تبكي، فضربتها أمها على صدرها وبطنها بلعبة كانت تمسك بها وهي تداعبها قائلة:

- يا الله! سترى عقلة الإصبع هذه هذا اليوم الموعود.. ابنتى سترى هذا اليوم أيضا!

وكأن الأم لم تكن تتوقع ذلك الأمر، وظلت لعدة أيام تظن أن ليلى مصابة بمرض ما، وحين بدأت بعض التغيرات تظهر على جسمها، عندئذ تحير جميع الناس، حتى أمها نفسها أصابها نوع من القلق والخوف من جراء ما أصاب جسم ليلى، الذي انتفخ وتغيرت ملامحه، بينما كانت ليلى تمر بأيام عصيبة، نتيجة الكشف عن مكنون ذاتها الأنثوي وتفتح ما بداخلها من براعم.

وحين تم زواج ليلى من عطا محمد، أقيمت الأفراح والزينات، وكل ما يتعلق بالفرح. بالطريقة التي تقام بها في بيوت بقية الناس، لكن بدا الأمر وكأن الناس يسلون أنفسهم بمشاهدة زواج دمية بدمية أخرى!

حتى في بيت ليلى نفسه، من حيث كانت الزغاريد ترتفع وتختلط مع رنين الأساور المصنوعة من الزجاج في أيدي النسوة والفتيات، كان صوت الأواني والأطباق يسمع بينما تحركها الأيدي تعيد ترتيبها، لم يكن لكل هذا معنى لدى الناس سوى أنه مصدر سعادة لأهل الحي جميعا، وللجارات بصفة خاصة، اللاتي كن يتدفقن على بيت ليلى، يأخذنها ويدرن بها حينا، ويرقصن من حولها حينا آخر، بينما ترتفع ضحكاتهن.. لكن ليلى حين زفت إلى عطا محمد شعرت بأنها تتساوى مع أطولهن قامة، وشعرت كأن البيوت من حولها صغرت، وكأنها في واد أسفل منها، وكأنها تشاهدها من علو شاهق..

لقد برزت وبرز قدها، وتخلص من جميع الحدود، واخترقت ليلى أبواب الحياة ونوافذها، ومضت إلى حيث الراحة والطمأنينة والأمان، لقد شعرت أنها خرجت من حدود جسمها الصغير القزم..

بدأ الاثنان معا يعدان الأيام

والليالي في انتظار اليوم الموعود. وحين ولد بشير، أحست ليلى كأنها ولدت من جديد، فقد خرج من رحمها طفل صحيح، له وجه مدور كالقمر، وصار لحياتها معنى.. وخلال سنتين ولد نذير، فبدا لهما كأن الكائنات كلها تتحرك على وقع خطوات هذين الطفلين، وكأن طيور الكون تشقشق وتغرد من أجلهما.. كان بشير ونذير ينطلقان بسرعة.. أحدهما خلف الآخر، وشب عودهما، وحطما قيود قصر قامة والديهما، فطالت قامتاهما أكثر فأكثر.. كان عطا محمد وليلى يتعلقان بأكتاف ولديهما، وكأنهما يشاهدان الحياة من أعلى، ومن مكان بعيد، إلى حيث لم تكن أعينهما تصل من قبل!

لم يكن هناك الآن في القرية من يستطيع أن يتجاهل وجود ليلى وعطا محمد، اللذين بدأ رأساهما يرتفعان إلى أعلى فخرا، وتعلما كيف يضعان أعينهما في عيون الناس، كما ظهر في طريقة مشيهما نوع من الوقار الممزوج بالثقة، وباختصار شعرا كأنهما يضعان أقدامهما فوق الأرض، لقد رفعا رأسيهما المطأطئتين إلى الأرض، وبدا إشراق الحياة ونورها واضحا في العيون المتسخة، ووجد الاثنان النجاة من عذاب قصر قامتيهما.

قاما بإنفاق جميع مدخراتهما على تربية بشير ونذير وتعليمهما، كان الولدان على درجة كبيرة من الذكاء، فحصلا على درجات ممتازة في المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ثم ذهبا إلى المدينة لاستكمال الدراسة في الكلية.

لماذا تظل حياتكما هكذا رهن المعاناة.. إن أبناء الفلاحين عادة ما يعملون بالزراعة؟

هكذا كان بعض الأقارب يقولون لعطا محمد وليلى، فينفجر الاثنان ضاحكين، وقد عمهما السرور، فلم يصل أي طفل في القرية إلى مرحلة التعليم تلك.

ظل عطا محمد يبيع أرضه قيراطا بعد قيراط، بينما كان بيته يمتلئ على الدوام بالضيوف، وزاد تردد الأقارب عليه يخبرونه بالإشارة تارة وبالكناية تارة أخرى، برغبتهم في طلب ابنيهما للزواج بينما يغرق عطا محمد وزوجته في بحر من السرور والفرح، ويتوجهان بالدعاء إلى الله، ويشكرانه على إحسانه وفضله، لأنه وهبهما هذين الولدين.

انشغل بشير ونذير بالكفاح، وانغمسا في حياة المدينة، كان بداخلهما هاتف يردد دائما:

- إذا لم تحصلا على مكانة في المجتمع، فلن تنالا أي قدر بين الناس، وسيعتبركما الناس أقزاما من أصحاب القامات القصيرة، لن يلتفت إليكما أحد..

وكان هذا الاحساس بالنقص يدفعهما ويحثهما على الاجتهاد ليل نهار، وهكذا حصل بشير على درجة الماجستير في الاقتصاد بتقدير ممتاز وصار نائب مدير في إحدى الشركات. أما نذير فقد نجح في مسابقة للحصول على وظيفة محترمة وعين بالمدينة.

كان الاثنان كلما تذكرا القرية، تذكرا حدودهما الضيقة، وتذكرا تلك الأوقات التي بذلا فيها كل الجهد من أجل الخروج من دائرتهما الضيقة، وهكذا تغيرت علاقتهمابكل ما في القرية، وتحول شعورهما تجاه القرية إلى شعور بالغثيان، لم يعد لسماء القرية الصافية ولا لأرضها التي تثير

النقع أي مكانة في قلبيهما..

نادرا ما ذهبا إلى القرية.. كان عطا محمد وليلى يشعران كأن مخلوقا من السماء حط في بيتهما، ويعرف أهل القرية خبر وصولهما، ولا يكاد يصل هؤلاء إلى بيت عطا محمد لتحية ولديهما والاطمئنان على سلامتهما، وتهنئتهما بسلامة وصولهما، حتى يغادر بشير ونذير البيت عائدين إلى المدينة!!

أما حال عطا محمد وليلى فكانت أشبه بحال الأرض المتعطشة للماء، نزل عليها المطر.. كان ما حدث بالنسبة لهما مجرد رؤيا أيقظهما منها بعض الناس بقسوة شديدة، فوجدا أنهما متعطشان إلى نوم مصطنع حتى يذكر الواحد منهما الآخر بما شاهده في رؤياه! كانا يشعران كأن شخصا ما جعل قامتهما أقصر وأقصر، بعد أن طالت وارتفعت، وهكذا واجها مرة أخرى كرب قصر القامة ومعاناته.

لقد انخدعت ليلى بوجودها، كانت صدمتها أشد، فأحيانا ما يتعرض الإنسان لكثير من المشكلات لدرجة أنه يمكن أن يكذب الحقائق، ويكذب الواقع الذي يراه أمامه، لكنه مضطر في كل الأحوال إلى التسليم بوجوده، فوجود ليلى هو الشيء الذي تصدقه، ووجودها هو حقيقتها، التي لا يمكنها أن تهرب منها.

لم يكن الأمر مجرد بشير ونذير لأنهما كانا جزءا من وجودهما..

آه صارت ليلى جسما محطما يتعرض لمن ينكر معرفته، لقد أصيبت ليلى فجأة بالخواء، والزيف وكأن أحدا سلبها جوهرها، صارت مثل حائط مبني بالطوب اللبن تفتت وانهار، لفها الصمت.. فأخذ عطا محمد يشد من أزرها:

- لماذا ينهزم قلبك! أنا الذي هو أنا موجود معك، بجوارك، أليس هذا بكاف؟!

ماذا عساها تقول.. تتطلع إليه واهمة.. بينما عطا محمد يحاول أن يخفف عنها، وكأنه يحاول أن يحمل عنها عبء ما تعانيه، يحاول أن يجعلها تستند عليه، تعتمد عليه، ومهما اقترب منها عطا محمد، لم يكن هو نفسه عطا محمد، ولم يجدها هي نفسها ليلى التي كانت، كان إنسانا آخر، وهذا الآخر اخترق ذاته ووجوده، ولهذا بدأ يشعر بكراهية وجوده!!

كان عطا محمد يحاول بكل ما يملك من طاقة أن يجعل الحائط متماسكا، كان كلما شاهد الحائط على وشك السقوط، أو لاحظ موضع وهن وضعف فيه قام بترميمه بطيبته وحسن أخلاقه، لكن ليلى نفسها كانت قد وهنت، وفشل علاج الحكيم، وفشل علاج عيادة القرية، في أن يعيد إليها ما فقدته من صحة وعافية، فكان الاتجاه بعد ذلك إلى المدينة!

حين وصلا إلى المدينة جعلت ليلى تحدق في الناس جميعا، فربما وجدت من بينهم بشيرا أو نذيرا، وظلت عيناها تدوران هنا وهناك دون وعي منها..

كانت تعرف طبيعة المدينة، فجواهر وجودها تحولت هنا إلى أحجار.. تذكرت حين جاء عطا محمد إلى هذه المدينة عند ابنيه بشير ونذير، وبعد أن قضى عدة أيام رجع إليها، شعرت حين رأته كأن أحدا من أهل المدينة قد سلبه كل ما يملك ، وكل ما لم يكن يملك، ولهذا ظلت تقول لعطا محمد:

لا.. لا تأخذني إلى المدينة، لا تفصلني عن ترابي هنا، لا تضعني أمام ذنوبي!

لكنه عاند، ولم يكن يدري لماذا لا تريد أن يصل خبر مرضها إلى ولديهما..

عرف عطا محمد عنوان هذا المستشفى عن طريق موظف مصحة القرية، ولما كان عطا محمد قد أنفق كل ما كان معه من أموال.. باع آخر قطعة أرض يمتلكها، وأخذ المبلغ لينفقه على علاج ليلى، وهكذا حجز لها غرفة خاصة في المستشفى.. كان الأطباء مع الممرضات يقومون بعلاج ليلى، لكن في البداية بدا الأمر بالنسبة لهم كأنه مزاح، لم يصدق هؤلاء أمر عطا محمد، وهل يريد منهم فعلا علاج ليلى، إلا حين أدخل يده تحت قميصه، وأخرج من جيبه الداخلي رزمة من الأوراق المالية...

وبينما كان حال ليلى في تدهور مستمر كان عطا محمد يتابع إخراج

النقود من جيبه، فلم تعد لديه حاجة للنقود، كان المستشفى عبارة عن (فيلا خاصة)، يعمل فيه أطباء ينتمون إلى مستشفيات كبرى، بعض أوقاتهم.

حين دخل الشقيقان بشير ونذير الغرفة حاول عطا محمد أن يجعل ليلى تتماسك، وأجلسها على الفراش، وهو يمسك بيده ملعقة صغيرة بها عصير برتقال، ويحاول أن يدخلها في فمها المغلق...

- يا أماه! ماذا حدث؟

سأل الشقيقان في صوت واحد، وسمعا تردد صدى سؤالهما في الوقت نفسه، لم يكن لديهما كلام غير هذا السؤال، ربما لم يكن بمقدورهما أن يسألا أي سؤال آخر.

كانت ليلى صامتة، جعلها المرض الشديد غير قادرة على فتح عينيها، فكانت جفون عينيها تنغلق رغما عنها..

انظري.. من جاء هنا؟!

حاول عطا محمد أن يذكرها بشيء..

بعد لحظات فتحت ليلى عينيها، واستجمعت ما تبقى لها من قوة الإحساس، وحاولت أن تفكر وأن تدرك ما يدور حولها.. شاهدت من بعيد.. من بعيد جدا وجهين لصغيرين، حاطتهما هالة ضبابية، تحولت إلى قطرات ماء، ومن خلف هذه القطرات حاولت ليلى أن ترى الوجهين الماثلين أمامها، وأن تتعرف عليهما.. بدا لها كأن الوجهين

يسيلان.. قطرات تتلاشى.. ثم يذوب الوجهان.. مسحت عينيها، وأخذت تحدق فيما أمامها.. كانت في حيرة، فهذان الوجهان يشبهان وجهها، فبدا لها كأنها تقف أمام مرآة، تشاهد فيها صورتها، تشاهد فيها وجهها الساكن، ووجهها الذي يسيل أيضا ويذوب.. شاهدت هذا المنظر فانفجرت ضاحكة.. ثم ظهرت على وجهها ابتسامة باهتة استمرت ثواني حتى لاحظها عطا محمد وأولاده أيضا..

كان هناك أمر ما، كانت شفتاها تودان أن تعبرا عن شيء ما، كانت هناك كلمات ظلت حائرة بين شفتيها.. جعل عطا محمد وولداه يقربون وجوههم وآذانهم عند شفتي ليلى، كانت شفتا ليلى تتحركان لكن صوتا ما لم ينبعث، لم تنطق الكلمات، لكن صدر صوت مثل صوت طيران الفراشات.. فلا يمكن لأحد أن يسمع صوت الإنسان الواقف عند دهليز الموت، لا يمكن لأحد أن ينال نصيبا من سماع صدق كلمات الإنسان الميت، فقول الصدق وعبور مرحلة الحياة إلى مرحلة الممات من أصعب المراحل..

وقف عطا محمد بقده القصير في ظل ولديه يحاول أن يفهم.. لقد ذهبت ليلى دون أن تنطق بكلماتها الصادقة الأخيرة، ذهبت ليلى إلى هذا الطين الذي منه كانت خميرة عجينتها.. حملها عطا محمد إلى القرية ووسط المقابر الضخمة أضاف قبرا صغيرا..

بقي عطا محمد مقيما في بيته بالقرية عدة أشهر، ففي هذا البيت ربطته ذكرياته القديمة مع ليلى.. عاد ولداه إلى المدينة، لم يكن عطا محمد بقادر على أن يذهب إليهما فلم يكن يستطيع أن يخرج مرة أخرى من الأسوار التى تحيط به..

جاء إلى المدينة.. ورضي بأن يعمل في هذا المقهى لأن أحدا لا يمكنه أن يتعرف عليه، لدرجة أنه هو نفسه نسي نفسه تماما.. وغرق في حالة من النسيان بدأت تذكره مرات عديدة بكل شيء مضى، وهو الآن يأمل في أن يصبح أمثاله مثل بقية خلق الله! ■